المعنى القرآنيّ الكريم في ضوء التّوجيه النّحويّ

م. د. حقّيّ إسماعيل الجبوريّ
الجامعة المستنصريّة / كليّة التّربية

الحمد لله الّذي جعل الحمد ثمنًا لنعمائه، ومعاذًا من بلائه، ووسيلاً إلى جنانه، وسببًا لزيادة إحسانه، والصّلاة والسّلام على رسولِهِ؛ نبيِّ الرّحمةِ، وإمامِ الأئمّةِ، وسراج الأمّةِ، المنتخب من طينة الكرم، وسلالة المجد الأقدم، ومغرس الفخار المعرق، وفرع العلاء المثمر المورق، وعلى آل بيته مصابيح الظّلَم، وعصم الأمم، ومنار الدّين الواضحة، ومثاقيل الفضل الرّاجحة صلّى الله عليهم أجمعين، صلاةً تكون إزاءً لفضلهم، ومكافأةً لعملهم، وكفاءً لطيب فرعهم وأصلهم، ما أنار فجرٌ ساطعٌ، وخوى نجمٌ طالعٌ . هذا بحث في : المعنى القرآنيّ الكريم في ضوء الـ وجيه الـ حوي ، والعنوان يشير إلى أمرين مهمين :

أولهم : المعنى القرآني الكري .

الثاني : التوجيه النحوي للمعنى القرآني الكري

أرسى الإمام عليّ بن أبي طالب ٠ هـ) (عليه السلام) دعائم العلم النّحو، فصحيفته الّتي ألقاها لأبي الأسود الدؤليّ ٦٩ هـ : بسم الله الرّحمن الرّحيم : الكلام كلّه اسم، وفعل، وحرف، فالاسم : ما أنبأ عن المسمّى، والفعل : ما أنبأ عن حركة المسمّى، والحرف : ما أنبأ عن معنًى ليس باسم، ولا فعل . ثمّ قال : تتبّعه، وزد فيه ما وقع لك، واعلم أنّ الأشياء ثلاثة ؛ ظاهر، ومضمر، وشيء يس بظاهر، ولا مضمر، وإنّما يتفاضل العلماء في معرفة ما ليس بمضمر، ولا ظاهر ١ .

فالنّحو يهتمّ بأمور متعدّدة تتوزّع ما بين الحركات، وترابط الكلمات بهذه الحركات الّتي تمثّل علاقات التّرابط الوظيفيّ والأدائيّ المعبّرَيْن عن معنًى يريده المتكلّم، ويفهمه المتلقّ ي، فتلك الحركات تعبّر عن معانٍ متعاقبة متعاورة بحسب موقع اللفظ من الجملة، والعبارة، والتّركيب ؛ رفعًا، ونصبًا، وجرًّا، فضلا عن ترتيب الألفاظ برتب معيّنة من جهة، ومن جهة أخرى برتب مختلفة، وعلاقات الجمل بعضها ببعض، والعبارات ببعضها ؛ وصولا إلى معانٍ

يُعَبَّر عنها بتركيبٍ، أو بتراكيبَ بحسب حاجة المعبّر عن تلك المعاني، ويهتمّ برتب الألفاظ؛ تقديمًا، وتأخيرًا، فضلا عن اهتمامه بنظام القرائن؛ ذكرًا، وحذفًا .

إنّ ذلك يدخل في باب النَّظْم وغيره؛ لأنّ النَّظْمُ : " توخّي معاني النّحو، وأحكامه، ووجوهه، وفروقه في ما بين مـِ اني الكَلِم ". فغاية النَّظْ ــ عند كلّ ناظ ــ إظهار معاني النّحو ؛ لأنّ النّحوَ قصدٌ، والقصدُ معنًى، والمقاصدُ معاز

ومن هذه الباب كانت جملة مع ني النّحو) ظاهرة عند أبي سعيد السّيرافيّ في مناظرته مــع أبي بشر بن مُتَّى بن يونُس في مجلس الوزير أبي الفا ح بن جعفر . قال أبو سعيد : " معاني النّحو منقسمة بين حركات اللفظ، وسكناته، وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها، وبين تأليف الكلام بالتّقديم والتّأخير، وتوخّي الصّواب في ذلك، وتجنّب الخطإ من ذلك، وإن زاغ شيءٌ عن هذا النّعت فإنّه لا يخلو أن يكون سائغًا بالا ستعمال النّادر، والتّأويل البعيد، أو مردودً ؛ لخروجه عن عادة القوم الجارية على فطرتهم .

وإذا كان السّيرافيّ قد تطرّق إلى معاني النّحو، فإنّ أحمدَ بنَ فارس ٩٥ هـ) قد عقد في كتابه الصّاحبي في فقه اللغة وسُنَنِ العربيّة) بابا أسماه معاني الكلا ، وذكر أنّ هذه المعاني عند أهل العلم عشرة ؛ خبرٌ، واستخبارٌ، وأمرٌ، ونهيٌ، ودعاءٌ، وطلبٌ، وعرضٌ، وتحضيضٌ، وتمنٍّ، وتعجّب .

وبتأمّل كلّ اصطلاح ذكره ابن فارس نجد أنّه قد مثّل معنًى من المعاني؛ ولذلك فإنّ النّحو معنًى قبل أن يكون لفظًا، أو مجموعةَ ألفاظٍ منتظَمة في جملة كانتظام الخرز في العِقْدِ، والعلاقات النّحويّة ما يُعَبَّرُ عنه بصوابٍ، أو بفسادٍ؛ تبعا لصواب المعنى، أو فساد .

والقرآن الكريم ــ كما قال أبو سُلَيمان ؛ حمد بن محمّد بن إبراهيم الخطّابيّ ٣٨٨ هـ ـ : إنّما صار مُعْجِزً ؛ لأنّه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التّأليف، مضمَّنا أصحّ المعاني ؛ ولأنّ النّحوَ معنًى يريده المنشئ ؛ فلا بدّ من أن يكون لهذا المعنى ألفاظٌ تعبّر عنه، هذه الألفاظ أوعية المعاني، وهذا البناء اللفظيّ يُعْرَفُ عند جمهور النّحويّين بالــ كلام ، والكلا : اللفظ المفيد فائدة يحسن السّكوت عليه ، ويُقْصَدُ بــ اللفظ) الكلمة، والكلام، والكلم .

والكلمةُ جزءُ الكلا ؛ لأنّ الكلام ما تألّف من كلمتين أو أكثر، شريطةَ تحقيق الفائدة المعنويّة ويُرَادُ بالفائدة تمام المعنى، ودراسة النّحو على أساس المعنى تمنحه رقّةً، وحلاوةً،

ودقّةً، وطلاوةً، خلاف ما هو عليه الآن ؛ لأنّ النّحو : " يدور على المعنى ؛ أساسًا، وبناءً، وموضوعُ المعنى جليلٌ، وحسبك من جلالته أنّ اللغة ما وُضِعَتْ إلاّ للإفصاح عنه " .

والكلم : لفظة دالّة على معنًى بالوضع، وهي جنس تحته ثلاثة أنواع ؛ الاسم، والفعل، والحرف . والكلا : " ما تركّب من كلمتين أُسْنِدَتْ إحداهما إلى الأخرى، وذلك لا يتأتّى إلاّ في اسمين، كقولك زَيْدٌ أَخُوْكَ ، و بِشْرٌ صَاْحِبُكَ ، أو في فعل واسم، نحو قولك جَـاْءَ زَيْدٌ ، و اِنْطَلَقَ بَكْرٌ ، ويُسَمَّى الجملة " كما قال ابن يعيش ٦٤٣ هـ .

فالكلام ثلاثة أقسام ؛ اسم، وفعل، وحرف، هذا من ناحية التّصنيف اللفظيّ للكلمة، وإنّما تمّ هذا التّصنيف النّحويّ على أساس المعنى، فالاسمُ حدثٌ دلّ على ثبوت ؛ لخلوّه مـن عنصر الزّمن، والفعلُ حدثٌ دلّ على تجدّد واستمرار بسبب اقترانه بزمن، والحرف لا معنى له في نفسه ؛ ولأنّه كذلك فـ و لا يستقلّ بالمفهوم إلاّ عند اقترانه باسم، فالحرف يكون له معنًى مُسْتَمَدٌّ من الاسم ضمن سياق الجملة بأكملها، فالحدثُ معنًى، نحو أفلح ، والـ إفلاح) معنًى من المعاني كما أنّ علِيّ) يعطي معنى العلوّ والارتفاع المادّيّ والمعنويّ بحسب ما تدلّ عليه الجملة، والزّمن معنًى أيضا، فالماضي معنًى، والحال معنًى، والاستقبال معنًى، وإن تغايرت المُدَدُ الزّمنيّة للماضي ؛ قريبًا كان، أم متوسّط المضيّ، أم مطلقًا، وكذا الأمر في الاستقبال

فهذه كلّها معانٍ، الّذي يحدّد هذه المعاني وأشباهها إنّما هو ما يرتبط بها من قرائن فظيّة، و قرائن معنويّا ؛ ولذلك قِيْلَ في الحرف لا معنى له بمفرد ؛ لعدم احتوائه على معنى في ذاته كما الاسم، والفعل .

أمّا من ناحية التّصنيف الجمليّ، ففي العربيّة جملتان لا ثالثة لهما كما ورد عن جمهور النّحويّين ؛ جملة فعليّة، وجملة اسميّة وقد حدّد جمهور لنّحويّين أنّ الجملة الفعليّة جملة تبدأ بفعل ــ أيّا كان زمن ذلك الفعل ؛ ماضيًا، أم حالاً، أم استقبالاً، أم استمرارًا ـ ، والفعل حدث مقترن بزمن، مقيَّد، أم غير مقيَّد و : " يقتضي تجدّد المعنى المُثْبَت به شيئًا بعد شيءٍ " ١ .

وبناءً على ذلك فإنّ الفعل ما خلص من نيّة البناء للمجهول، ويتوافر فيه معنيان :

أوّلهم : الحدث ــ واستثنى النّحويّون الأفعال النّاقصة من هذا الحكم ـ

الثّاني : والزّمن المقيَّد بقرينة، والمطلَق غير المقيَّد بقرينة ، المدلول على كلّ واحد منهما بالاستعمال اللغويّ، والثّابت عن طريق دلالة الجملة المستعمَل فيها، وبناء على ما ذكرته

مصنّفات النّحو والصّرف على السّواء ــ في ما يخصّ الفعل ـ ، فإنّ الفعل ينقسم إلى قسمين ؛ هم :

ــ الفعل المتعدّي : ويُسَمَّى المجاوز، وهو : " ما يجاوز الفاعل إلى المفعول به بنفسه، وعلامته أن تتّصل به هاء تعود على المفعول تُسَمَّى هاء غير المصدر، نحو زَيْدٌ ضَرَبَهُ عَمْرٌو ، وأن يُصَاْغَ منه اسمُ مفعولٍ تامٌّ، أي غير مقترن بحرف جرّ، أو ظرف " (١٢)

ــ الفعل اللازم : ويُسَمَّى القاصر، وهو : " ما لم يجاوز الفاعل إلى المفعول به، نحو قَعَدَ مُحَمَّ " (١٣) ، وله اثنتا عشرة علامة يُعْرَفُ بها (١٤) .

وإذا كان هذان النّوعان هو ما نصّت عليه مصنّفات النّحو والصّرف، فإنّ تلك المصادر والمراجع ؛ النّحويّة، والصّرفية قد أغفلت نوعين آخرين من الفعل، ولم تُشِرْ إليهما في باب التّعدّي واللزوم، والنّوعان الآخران :

أوّلهم : الفعل المتعدّي المستعمَل استعمال اللازم، وله أسباب لاستعماله هذا الاستعمال (١٥) .

الثّاني : الفعل اللازم المستعمَل استعمال المتعدّي، وله أسباب لاستعماله هذا الاستعمال (١٦) .

وهذا النّوعان مستعمَلان في القرآن الكريم على غير قلّة، ومن هنا يمكن القول إنّ هناك أربعة أقسام للفعل من حيث التعدّية واللزوم هي :

١ . فعلٌ متعد ٢ . فعلٌ لازم

٣ . فعلٌ متعدٍّ اِسْتُعْمِلَ استعمال اللازم ٤ . فعلٌ لازمٌ اِسْتُعْمِلَ استعمال المتعدّي .

وسيقتصر هذا البحث على النّوعين ؛ الثّالث، والرّابع ؛ لأنّ الأوّل والثّاني استقرّت مباحث كلّ منهما، وأمر كلّ منهما واضح كوضوح الشّمس في رابعة السّماء .

فمن الأمثلة القرآنيّة على المتعدّي، قوله جلّ وعز : (إنَّ الْمُنَافِقِينَ خَ ادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ ذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلا) (١٧) .

فالأفعال يخادعون ، و يراؤون ، و يذكرون) هي أفعال متعدّية مجاوزة ؛ ولذلك جاوزت الفاعل واو) الجماعة في الأفعال الثّلاثة إلى المفعول به الله) في يخادعون ، و النّاس) في يراؤون ، ولفظ الجلالة الله) في يذكرون ، وأصل هذه الأفعال في الماضي خدع ، و راءى ، و ذكر ، وكلّ منها متعدّ بنفسه، بدلالة قبوله هاء المفعول خدعه ، و راءا ، و ذكر .

أمّا الفعل اللازم فمن استعماله في القرآن الكريم قوله جلّ وعزّ : ﴿ ﺍوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى ﴾ [١٨]. إذ استُعْمِلَ الفعل وسوس ، والفعل يبلى) لازمين غير مجاوزين ، إذ اكتفى كلّ منهما بالفاعل ؛ لعدم مجاوزتهما إيّاه إلى المفعول ؛ لأنّ قوّة الفعل تقتضي الوصول إلى الفاعل فقط، فكان فاعل وسوس) الشّيطان، وﺫ عل يبلى) الضّمير المستتر الّذي يعود إلى ملك .

الفعل المتعدّي الّذي استُعْمِلَ استعمال اللازم

يُقْصَدُ بهذا النوع أنّ أصل الفعل استعمالا يكون فعلا متعدّيا، لكنّه على مستوى الاستعمال جاء لازمًا، فيكون متعدّيا أصالةً، ولازمًا استعمالاً ؛ لوظيفةٍ يؤدّيها، ولِ لّةٍ جعلته يكون بمنزلة الفعل اللازم أصالةً، وجاء ذلك الاستعمال في قوله جلّ وعزّ : ﺍمَ نْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) [١٩].

حيث نجد أنّ الفعل يقبض ، والفعل يبسط) متعدّيان أصالةً [٢٠] بدلالة قبول كلّ منهما هاء المفعول هاء غير المصدر) ولكن جاء كلّ منهما لازمًا على مستوى الاستعمال القرآنيّ، بدلالة غياب مفعول كلّ منهما عن الذّكر، وقد جاء مثل هذا في القرآن الكريم كثيرً

إنّ استعمال الفعل يقبض ، والفعل يبسط) استعمال الفعل اللازم إنّما كان لأمور

١ : عدم إرادة المفعول ؛ لا ذكرًا، ولا تقديرًا، فــ المقبوض ، و المبسوط) لم يُذْكَرَ ؛ لعدم إرادة كلّ منهما بالذّكر، بل أُرِيْدَ التّركيز على الحدث الموجود في يقبض ، و يبسط ، وهو الــ قبْض ، و الــ بَسْط .

٢ : التّنصيص على شمول الزّمن ؛ زمن القبض، وزمن البسط، فالفعلان يقبض ، و يبسط) فعلان مضارعان في الصّورة اللفظيّة لكلّ منهما، ولكنّهما في حقيقة الاستعمال القرآنيّ الكريم ليسا كذلك، فتحديدُ زمن الفعل بالحال أو بالاستقبال، أو بكلا الزّمنين أمرٌ يخالف معنى النّ صّ الكريم ؛ لمخالفتهما ما يُرَادُ من الحقيقة، فلو أُعْرِبَ يقبض ، و يبسط) فعلين مضارعين دالّين على الحال لكانت دلالة النّصّ أنّ الله جلّ وعزّ هو القابض الباسط في الحال، فهو غير قابض ولا باسط في الماضي والاستقبال وحاشا لله من أن تُحَدَّدَ قدرته ومقدرته، و كذا الأمر لو أُعْرِبَا مضارعين دالّين على استقبال فيكون معنى النّصّ الكريم أنّ الله جلّ وعزّ هو القابض الباسط في المستقبل أيّ إنّه غير قابض ولا باسط في الماضي ولا في الحال، وحاشا لله جلّ وعزّ من أن يكون قاصرا في صفته، ولا في صفاته، ففي مثل هذا الإعراب تحد ــد من قدرة الله جلّ وعز ــ حاشا لله ــ ومقدرت ؛ ولأنّ الله جلّ وعزّ قابض وباسط كلّ وقت في كلّ وقت، وكلّ

مكان وفي كلّ مكان فينبغي للمعرب أن يعرب هذين الفعلين فعلين مستمرّين في الزّمن ؛ لينسجم الإعراب مع المعنى المراد من النّص ؛ ولذلك كان الزّمن هنا محرَّرا مطلَقً) عن كلّ قيد ؛ لأنّه ـ جلّ وعزّ ـ يقبض ويبسط متى شاء ويشاء، وأنّى شاء ويشاء

٢ : التّنصيص على فاعل حدث الـ قبْض ، والـ بَسْط ، فإذا كان التّركيز منصبًّا على الحدث المعزَّز باستمرار الزّمن وصيرورته، فإنّ القصد المعنويّ يتوجّه إلى الفاعل الحقيقيّ للـ قبْض ، و الـ بَسْط ، وهو لفظ الجلالة الّذي يُقَدَّمُ على فعليه الحقيقيّين .

إنّ تقدّم لفظ الجلالة على فعليه الحقيقيّين قد انتقل بالجملة من كونها جملة فعليّة إلى كونها جملة اسميّاً ؛ إرادةَ الثبوتِ، فتَغَيُّرُ نمط الجملة يصاحبه تغيّر في وظيفة الجملة، و سببُ كلّ تغيّر لفظيّ عدولٌ معنويٌّ، فممّا هو معلوم في النّحو أنّ التّعبير بالجملة الاسميّة يفيد الثّبوت ؛ وأنّ التّعبير بالجملة الفعليّة يفيد التّجدّد والحدوث ؛ ولأنّ الله جلّ وعزّ لا قابضَ غيره ولا باسطَ، فإنّ ذلك يعني ثبوتًا في هاتين الصّفتين ؛ حدثًا، وزمانًا، ومكانًا، فإنّ التّعبير بالجملة الاسميّة أبلغ دقّة من التّعبير بالجملة الفعليّة لثبوت مقدرته في الـ قبْض ، والـ بَسْط ؛ ولذلك نُزِّلَ الفعل المتعدّي يقبض ، و يبسط ـ وهما متعدّيان بالأصالة ـ منزلة الفعل اللازم، ومن هنا فإنّ ما تمّ التّنصيص عليه في ما تقدّم إنّما هو : " عامّ في كلّ شيء، فهو الـ قابض) الـ باسط) " (١) .

وثمّة أمران آخران :

أوّلهم : إنّ شمول الزّمن في الفعلين مدعاة لعدم إرادة ذكر المفعولين ؛ الـ مقبوض ، والـ مبسوط ؛ لأنّ الـ قبض ، والـ بسط) يحتاجان إلى زمن يقعان فيه ؛ ولذلك انتُفِيَ ذكر هما ها هنا ؛ لعدم إرادة زمن بعينه ؛ لأنّ إرادة زمن بعينه تتقاطع وحقيقة الله جلّ وعزّ ؛ بكونه القابض الباسط، فهو ـ جلّ وعزّ ـ القابض على كلّ شيء، والباسط لكلّ شيء، وهذا من باب مقادير الأمور .

الثّاني : إنّ جملة يقبض ، و يبسط) جملتان واقعتان في محلّ رفع خبر للفظ الجلالة الله ، وجملة والله يقبض ويبسط) إنّما هي جملة مستأنفة، والخبر على تقدير مشتقّ قابض ، و باسط) بصيغة التّنكير ؛ لإفادة الشّمول في الـ قبْض ، والـ بَسْط ، فهو قابضٌ باسطٌ بشمول ؛ لأنّ النّكرة تفيد معنى الشّمول من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ الخبر حال في الأصل، فحالُ الله جلّ وعزّ قابضٌ باسطٌ، وهذه الحال ثابتة لا متغيّرة . إنّ هذه الدّلالات المعاني) كلّها كانت سببًا لاستعمال الفعل المتعدّي استعمال الفعل اللازم .

أمّا قوله جلّ وعز : وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ زبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ) [٢] .

فالفعل يعلمون) متعدّ أصالةً، وقد استُعْمِلَ منفيّا بحرف النّفي ا) غير العامل عمل ليس ؛ لدخوله على جملة فعليّة، واستُعْمِلَ الفعل بصيِ ة الفعل المضارع، وجاء بمنزلة الفعل اللازم من حيث الاستعمال، واستعمال الفعل المتعدّي استعمال الفعل اللازم في القرآن الكريم يحمل دلالات معانٍ) عديدة متنوّعة، بحسب المعنى القرآنيّ الكريم المراد تبليغه للنّاس .

إنّ التّحوّل في الاستعمال من التّعدية إلى اللزوم له تحوّل في دلالة الفعل نفسه، وإذا كان الفعلان يقبض ، و يبسط) في الآية السّابقة مثبتَين، فإنّ الفعل لا يعلمون) في هذه الآية الكريمة استُعْمِلَ منفيّا، والنّفي إنّما هو نفي للمعنى هنا ؛ نفي معنى الفعل لا نفي لفظ الفعل، وإنّما يظهر أثر ذلك النّفي في معنى ا نّصّ ولفظه بحسب عمل النّافِ .

ويُقْصَدُ بالمعنى في النّحو الحدث ؛ ولذلك كان الحدث في النّصّ الكريم منفيّا ؛ تناسقًا وتساوقًا مع معنى النّصّ الكريم ودلالته، فقوله جلّ وعز : ا كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ) [٣] إنما هو : تشبيه بمن لا يعلم [٤] ، إذ فعلوا فعل الجِ هل فيِ يء من اللفظ أنّهم كفروا على عل [٥] .

وقد تقدّم الكلام على أنّ النّفي إنّما يتوجّه إلى جهة واحدة من جهتي الفعل، وهي جهة الحدث، أمّا الزّمن فلم يصل إليه النّفي، على أساس أنّ النّفي مختصّ بالأحداث ؛ لأن الأحداث معان، فاقتصر النّفي على العلم بكتاب الله جلّ وعزّ، وليس نفي العلم بزمن كتاب الله جلّ وعز ؛ لأنّ كتاب الله جلّ وعزّ كان قد أُنْزِلَ ماضيً ــ قريبًا، أم متوسّطًا، أم بعيدًا ـ ، ممتّدًا إلى وقت التّعبير .

ومن النّكت القرآنيّة الكريمة في هذا التعبير أنّ الملحو ظ في حرف النّفي غير العامل ا) بدخوله ع ى الفعل يعلمون) قد تحوّل زمنه من الحال والاستقبال إلى الماضي حقيقة .

إنّ الّذي ساعد في هذا التّحوّل الزّمنيّ وجود التّشبيه المعبَّر عنه بأداة التّشبيه الــ كاف في كأنّهم ، فقُيِّدَ الحدث بالنّفي، فتوجّه الاهتمام إليه، والزّمن مقيَّد بين الماضي والحال، ومن ثمّ توجّه القصد إلى فاعلي عدم العلم بإتيان النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم) الكتاب .

ولمّا كان المفعول قد ذُكِرَ مفصَّلا قبل التّشبيه، وهو الكتاب ، فلم تكُ ثمّة ضرورة لإعادة ذكره بعد الفعل المنفيِ ؛ لأنّ التّنصيص في النّصّ الكريم كان على أربعة مبتغيا ت حقّقها النّصّ الكريم، والمبتغيات الأربعة هيِ :

١ : العناية بالحدث، فــ عَلِ) مصدره عِلْ ، والفعل يعلمون) ورد بصيغة فعل منفيّ لا مثبت، فقد اقتضى المعنى التّنصيص على نفي الــ عِلْ ـ بوصف الــ عِلْم) مصدرا، والمصدر حدث ـ ، فكان الحدث منفيًّا، فكأنّهم ! يعلمون فيتظاهرون بعدم العلم بكتاب الله جلّ وعزّ، وهم يعلمون به، فهم في الظّاهر يتظاهرون بعدم العلم، وفي الباطن يعلمون العلم ب .

٢ : العناية بعنصر الزّمن الّذي يتطلّبه معنى النّصّ الكريم، فالزّمن في الآية الكريمة على الرّغم من أنّ الصّورة اللفظيّة للفعل يعلمون) هي صورة فعل مضارع، والمضارع يدلّ على زمنين ؛ حال بقرينة، واستقبال بقرينة، إلاّ أنّ الفعل المنفيّ اقتصر على أن يكون المعنى من الماضي حتّى الحال ــ حال القول الزّمنيِ ـ ، فكانت دلالة الزّمن في النّصّ الكريم دالّة على الحال لا الاستقبال ؛ لأنّ زمن الآية كان حالاً، ومن البديهيّ ألاّ يكون المراد به مستقبلاً ؛ لأنّ ذلك يتناقض ومعنى النّص .

٣ : التّنصيص على فاعلِي الحدث في النّصّ الكريم، إذ إنّ استعمال هذا الفعل المتعدّي بالأصالة استعمال الفعل اللازم منفيًّا كان من دلالة استعماله هذا الاستعمال التّركيز على فا علِي عدم العلم بالكتاب ؛ كتاب الله جلّ وعز .

والفاعلون في النّصّ الكريم واو) الجماعة، والــ واو) تعود إلى فريق) جعلوا أنفسهم كأنّهم لا يعلمون، فكان التّنصيص والتّركيز على هؤلاء الفاعلين ؛ لأنّهم شبّهوا أنفسهم بمن لا يعلم، وهم الّذين نبذوا كتاب الله ــ جلّ وعز ــ وراء ظهورهم على وجه الحقيقة، فنفوا العلم به، وهم يعلمون ب

٤ : ويعتقد بعض الدّارسين أنّ الحذف قد يقع في بعض الآيات الكريمات ؛ ابتغاء المحافظة على التّناغم الموسيقيّ لنهايات الآي بعضها مع بعض، إن صحّت وجهة النّظر هذه في مسألة التّناغم الموسيقيّ لكنها لا تمثّل الصّواب بأكمله . إنّ ذاك الحذف لا يدخل في إظهار دلالة تخرج عن موسيقيّة النّصّ الكريم، فالقرآن الكريم كتاب الله جلّ وعزّ، ودستور النّاس حتّى يوم الدّين، فلا يُعْقَلُ أن يكون التّنصيص على التّناغم الموسيقيّ، وليس يُعْقَلُ أن يكون ذلك التّناغم هدفًا من أهداف النّصّ الكريم لإظهار الحذف، وأجدني لا أوافق من ذهب من الدارسين إلى هذه المسألة .

وقوله جلّ وعز : فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (٢٦).

فالفعل انسلخ) على أصله متعدٍ ؛ لأنّه متعدٍّ أصالةً في حقيقة جذره الثّلاثيّ سلخ ، فـ : " سلَخ) جلد الشّاة من باب قطع) و نَصَرَ ، و المَسْلُوخ : الشّاة الّتي سُلِخَ عنها الجلد، و سلَخْتُ) الشّهر إذا أمضيته وصرت في آخره (٢٧).

والفعل المستعمَل على مستوى النّصّ الكريم انسلخ ، وهو فعل ثلاثيّ مزيد بحرفين ؛ هما : الألف ، و النّون) على الأصل، فصار لازماً .

وتتردّد مقولة في الدّرسين ؛ اللغويّ، والنّحويّ مفادها أنّ كلّ عدول في اللفظ يصاحبه عدول في المعنى، والصّواب أنّ كلّ تغيّر في المعنى يصاحبه تغيّر في المبنى ؛ لأنّ المعنى سابق، والمبنى لاحق .

إنّ الزّيادة الموجودة في الفعل انسلخ) نقلته من حيّز التّعدية إلى حيّز اللزوم ؛ ولدلالته على المطاوعة طاوع فعله لفاعل فعل متعدٍّ لواحدٍ، يُقَالُ سلخته فانسلخ ، فلو طاوع ما يتعدّى فعله لاثنين لتعدّى لواحد، وهذه المطاوعة من علامات الفعل اللازم .

لقد توجّه الاهتمام إلى الحدث الموجود في الفعل، وهو الـ انسلاخ ، فجعل شرط الانسلاخ هو القيد الّذي يقف عليه القتال، فإن لم يحدث هذا الانسلاخُ لم يكن هناك قتال .

وبناءً على ما تقدّم كان التّنصيص على الزّمن الموجود في الفعل، وجعله محدّدا، فكان الزّمن ماضيًا، وإرادة الشّمول الموجود في الفعل، ويُقْصَدُ هنا بها شمول الحدث فمعنى : " انسلخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ) (٢٨) الحرم وحده، وجاز أن يُقَالَ : الأشهر الحرم للمحرّم وحده ؛ لاتّصاله بـ ذي الحجّة ، وبـ ذي القعدة ، وهما حرام، كأنّه قال : فإذا انسلخت الأشهر الثّلاثة، أي : المحرّم، وذو الحجّة، وذو القعدة " (٢٩).

وقريب منه قوله جلّ وعزّ : وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ) (٣٠). فالفعلان يستأخرون ، و يستقدمون) لازمان على مستوى الاستعمال القرآنيّ الكريم، والفيصل في تحديد لزوم هذين الفعلين من تعديتهما لفظ ساعة ، فإن أُعْرِبَ لفظ ساعة) مفعولا به كان الفعلان متعدّيين على أصل كلّ منهما، وإن أُعْرِبَ هذا اللفظ مفعولا فيه كان هذان الفعلان لازمين .

إنّ الّذي يحدّد إعراب لفظ ساع) معنى النّصّ الكريم، والمعنى يقتضي أن يُعْرَبَ هذا اللفظ مفعولا في ؛ لذا جاء الفعل يستأخروز) لازما على غير أصالته النّحويّة، فهو ـ في ا صل ـ متعدّ، وبسبب الزّيادة الّتي طرأت عليه دلّ على كونه فعلا لازما استعما .

إنّ الزّيادة هنا أفادت معنى الطّلب، فهم يطلبون من الله جلّ وعزّ أنّه إذا جاء أجلهم أن يتأخّر ساعة واحدة، ولن يتأخّر، ولن يتقدّم إلاّ إذا كان ذلك في مقادير الله جلّ وعز .

والطّلب المتحقّق باستعمال زيادة ثلاثة أحرف ؛ الألف، والسّين، والتّاء، فجاء الفعل هنا منفيًّا، وجاء الفعل يستأخروز ، والفعل يستقدموز ؛ لإفادة شمول التّأخير والتّقدي .

إنّ هذا الشّمول إنّما تمّ في الحدث، وفضلا عن شمول الحدث، فإنّا نتلمّس معنى شمول الزّمن، على أنّه يجب أن نضع في الاهتمام أنّ لفظة ساع) لم تُذْكَرْ مع الفعل يستقدمون) إيجاز ؛ لذكرها مع يستأخروز .

إنّ الفعلين المذكورين جاءا منفيّين، وممّا هو معلوم أنّ قصد النّفي يتوجّه إلى المعنى المستفاد من النّص ـ كما مر ـ ، فَنُفِيَ المعنى تناسقًا مع معنى النّصّ القرآنيّ الكري .

على حين أنّ قصْدَ النّفي هنا يتوقّف عند حدود جهة المعنى، ولا يصل إلى الزّمن، ولا يمسّه، فاقتصر على نفي طالب الاستئخار والاستقدام في ساعة الأجل، وقد : " أخرج الله بني آدم إلى الأرض، وأسكنهم فيها، وجعل لهم أجلا مسمّى لا تتقدّم أمّة على وقته ا المسمّى، ولا تتأخّر لا الأمم مجتمعة، ولا أفرادها " [١] .

وبناء على ما سيق من كلام فإنّ التّنصيص دلّ على مطالب حقّقها النّصّ الكريم، هي :

١ : العناية، والاهتمام، والتّركيز، والتّنصيص على حدث عدم الاستئخار، وعدم الاستقدام، وهما منفيّاز .

٢ : التّركيز على ـ نصر الزّمن للفعلين ؛ يستأخروز ، و يستقدموز ، ـ فهما وإن كانا في صورة المضارع إلاّ أنّ حقيقة المعنى تدلّ على أنّ زمن الفعلين مستمرّ ـ ؛ لأنّ القدرة

على تأخير الآجال وتقديمها في كلّ زمن من الأزمنة أمر في قدرة الله جلّ وعزّ، وأنّ القدرة على عدم تأخير الآجال و ـ دم تقديمها في كلّ وقت من الأوقات أمر في قدرة الله تعالى ـ أيض ـ ، وتلك خصيصة إلهيّ .

٣ : توجيه العناية إلى فاعلِي طلب التّأخير والتّقديم، وقد عبّر عن فاعلِي هذين الطّلبين بـ واو) الجماعة، والـ واو) هنا تعود إلى الأم .

الفعل اللازم الّذي استُعْمِلَ استعمال المتعدّي

وهذا النّمط من الأفعال عكس النّمط السّابق، واللازم ما لا يصل إلى مفعوله الّذي تقدّم الكلام فيه، أي هو ما كان في الأصل لازما لا يصل إلى مفعوله إلاّ بوساطة حرف جرّ، ولكنّه الاستعمال القرآنيّ الكريم استُعْمِلَ على هيأة المتعدّي ووصل إلى المفعول بلا وساطة حرف جر .

قال جلّ وعز : وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ) [٢٠]

فالفعل جاء) مذكور في النصّ الكريم، وهو فعل ماضٍ في الصّورة، والمعنى، والزّمن، وهو فعل لازم بالأصالة، ولكنّه استُعْمِلَ استعمال المتعدّي في الآية الكريمة فنصب مفعولا به صراحة وهو ضمير الجماعة الغائبين الذّكور هـ .

فـ : جاءهـ) نمط من التّعبير يفترق عن تعبير جاء إليهـ ، أو جاء فيهـ ، أو جاء منهـ ، وغير ذلك ممّا يعيده إلى أصالته في الاستعمال، والفرق بين هذه التّعبيرات أنّ التّعبير بـــ جاء إليهـ) أنّ إلى) هنا حرف جرّ يفيد انتهاء غاية، وتختلف هذه الغاية ما بين زمنيّة، ومكانيّة بحسب اللفظ الواقع بعد إلى ، ويتغيّر المعنى مع في ، و من) وبما أنّ النّصّ القرآنيّ لم تكن الغاية فيه تحديد انتهاء الغاية ؛ زمنيّة كانت، أم مكانيّة، ولم يُرَدْ تحديد الظّرفيّة عن طريق في ، ولا تحديد الجزئيّة في من) فانتفت الحاجة إلى استعمال حرف الجرّ مع الفعل جاء ؛ لأنّ هؤلاء لم تنته عندهم غاية إيتاء الكتاب ؛ كتاب الله جلّ وعز .

ولذلك جاء التّعبير بالفعل جاء) متعدّيا على غير أصالته، فضلا عن الشّمول الّذي حقّقه الفعل بذكره في هذا النّوع من الاستعمال، فالشّمول هنا للحدث المعنى ، والزّمن .

إذ استُعْمِلَ هذا الفعل، ونصب ضميرا على التّوسع في الاستعمال ؛ لأنّ مجيء الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم) كان سببه دعوتهم بشمولهم، بل جاء الكتاب العزيز للنّاس كلّهم .

فالفعل بصورته اللفظيّة يدلّ دلالة ماضية ؛ ولذلك توجّه الاهتمام إلى فاعل الحدث في زمن محدود هو زمن مجيء الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم) من عند الله جلّ وعزّ للنّاس كافة، وإلى الجماعة الّذين أوتُوا الكتاب ؛ كتاب الله جلّ وعزّ، فلا حدث قديم، وزمنه خالص إلى الماضي ؛ لأنّ الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم) آخر المرسلين، ومضي على نزول القرآن الكريم عصور متعددة متعاقب

والمعنى ولمّا جاءهم هذا الرّسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم) بالكتاب العظيم بالحقّ الموافق لما معهم، وكانوا يزعمون أنّهم متمسّكون بكتابهم، فلمّا كفروا بما دعاهم إليه، وبما جاءوا به : (نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ) (٣) .

ومن ذلك الاستعمال ــ أيضاً ــ للفعل (جاء) متعدّيا على غير أصالته قوله جلّ وعزّ : (وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ) (٤) .

فالفعل : (جاء) ــ وقد أُسْنِدَ إلى ضمير الجماعة (الــ واو) ــ، والمقصود بهم إخوة يوسف (عليه السلام) ، وهم قد جاءوا أباهم ولم يجيئوا إلى أبيهم ؛ لأنّ ثمة فرقًا بين الاستعمالين .

فلو قِيْلَ في غير القرآن الكريم (جاء إلى أبيه) فانتهاء غاية المجيء الأب، وتتحقّق هذه الغاية بالوصول إلى الأب، أمّا إن استُعْمِلَ هذا الفعل متعدّيا فذاك إيحاء بأنّ المعنى لم يكتمل عند حدود المفعول به الواقع عليه فعل المجيء، وفعل الجائي .

مع مراعاة أنّ الفعل (جاء) فعل لازم في أصالته كما نصّت على ذلك معجمات اللغة، فــ : الجَيْءُ ، و المَجِيْءُ : الإتيان . يُقَال : (جَاْءَ ــ يَجِيْءُ ــ مَجِيْئً ، و (جَيْئَةً ، كــ صَيْحَةً ، والاسم (الجِيْئَ ، كــ (شِيْعَة ، و (أَجَاْءَ) إلى كذا : أَلْجَأَهُ، واضْطَرَّهُ، وتقول : الحمد لله الّذي (جَاْءَ) بك، أو : الحمد لله إذ جِئْتَ، ولا تقول : الحمد لله الّذي جِئْتَ (٥) .

وهذا القول معزّز بما ورد في القرآن الكريم من آيات ورد فيها الفعل (جاء) باستعمالين، و بصيغ متفرقة، يُسْتَعْمَلُ فيها لازما على الا صل، ومتعدّيا ؛ ابتغاء غايات معنويّة يُرَاْدُ بها، وقد ورد هذا الفعل لازما يصل إلى مفعوله بوساطة حرف جرّ على ثلاثة استعمالات هي :

أولاً : استعماله لازماً .

وفيه ثلاثة استعمالات :

١ : وصل إلى مفعوله بوساطة حرف الجرّ (من) ، نحو قوله جلّ وعز : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً) (٦) .

٢ : وقد يصل إلى مفعوله بوساطة حرف الجرّ (الــ باء) ؛ لإفادة معان متعدّدة، نحو قوله جلّ وعز : (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَــؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) (٧) ، ومثله قوله جلّ وعزّ :

ا وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً) ٨ ، ومثله قوله جلّ وعز : مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُون) ٩ .

٢ : وأحيانا يصل إلى مفعوله بغير إلى ، والـــ باء ، فقد استُعْمِلَ هذا الفعل متعدّيا بحرف الجرّ من ، نحو قوله جلّ وعز : ا فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِين) ، ومثله قوله جلّ وعز : فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيل) ١ .

ثانيا : استعماله متعدّياً .

فيصل إلى مفعوله بلا وساطة لحرف الجرّ، وفي غالب الاستعمال القرآنيّ يأتي المفعول به ضمير :

١ : إمّا الـــ هاء ؛ للدّلالة على المفرد الغائب، نحو قوله جلّ وعزّ : عَبَسَ وَتَوَلَّى / أَن جَاءهُ الْأَعْمَى / وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى) ٢ .

أو للدّلالة على صيغة جمع الغائبين الذكور، نحو قوله جلّ وعز : وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّاب) ٣ .

٢ : أو الـــ كاف ؛ للدّلالة على صيغة المفرد المخاطَب، نحو قوله جلّ وعزّ : وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيم) ٤ .

وقد يُسْتَعْمَلُ للدّلالة على صيغة الجمع المخاطَب، نحو قوله جلّ وعز : ا فَإِن زَلَلْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيم) ٥ .

إنّ الفيصل في استعمال هذا الفعل لازما ــ على أصالته ـ ، أو متعدّيا هو المعنى المراد تقريره، وتقويته، وتعزيزه، وتعضيده، وحسبنا أنّ الجمل مُنْشَأةٌ على أساس تكوّن المعاني المرادة، والمعاني الّتي يُبْتَغَى إيصالها إلى المتلقّي على تنوّع مستويات النّصوص ؛ قرآنيّة، أم شعريّة، أم كلاميّ .

ولذلك فإنّ الفعل جاء) المذكور في قوله جلّ وعزّ : ا وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُون) ٦) جاء متعدّيا على غير أصالته واستعماله الشّائع، فذِكْرُ لفظ أباه) هنا ــ وهو منصوب ــ على أساس احتياج المعنى إلى المفعول المنصوب صراحة، وسبب التّعدّية أنّ الجائين ــ إخوة

يوسُف ــ كانوا مجتمعين حين جاءوا أباهم من جهة، ومن جهة أخرى أنّ المعنى لم يقف عند حدود مجيئهم أباه ؛ بدلالة بقيّة القصّة في السّورة الكريمة .

واستعماله هذا الاستعمال ونصبه المفعول به صراحة كان حاجة النّصّ إلى المعنى، فالحوار الدّائر بين الأب وبين إخوة يوسُف ومجيئهم على قميص يوسُف بدم كذب في قوله جلّ وعز : قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ / وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ)[٧] فهذا الحوار الذي ذُكِرَ في الآية الكريمة كان مدعاة لعدم مجيء حرف الجرّ مع الفعل جاء ؛ لعدم اكتمال المعنى عند مجيئهم أباه .

إنّ هذا الحوار الدّائر بين الأب وأبنائه في بعض تصوير القصّة كان دافعا هامّا من دوافع استعمال هذا الفعل متعدّيا وهو لازم في الأصل، فالغاية لم تنته عند مجيئهم أباهم، فما تلا هذه الآيات دليل على اكتمال تلك القصّة الّتي لم تتوقّف عند حدود ذلك المجيء .

ومن استعمال الفعل اللازم متعدّيًا قوله جلّ وعزّ : وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ)[٨] .

فالفعل اسكن) فعل لازم في الأصل ــ بحسب ما استعملته العرب في لسانها، وبحسب ما ذكرته معجمات اللغة ــ ، حيث إن سكَنَ) الشّيءُ من باب دَخَلَ ، و السّكينة : الوداع، والوقار، و سكَنَ) دَارَهُ يَسْكُنُهَ) ــ بالضّمّ ــ سُكْنَى ، و أَسْكَنَهَ) غيره إِسْكَانًا ، والاسم من هذا السُّكْنَى ، كــ العُتْبَى) اسم من الإعتاب) "[٩] .

فــ سكَنَ) فعل لازم كــ دَخَلَ ، وهو فعل لازم أيضا، وكلّ فعل لازم لا يُسْتَعْمَلُ استعمال المتعدّي إلاّ لدواع معنويّة، مثل ما أنّ الفعل المتعدّي لا يُسْتَعْمَلُ استعمال الفعل المتعدّي إلاّ لاقتضاء المعنى ذلك، ومن هذه الأبواب المتنوّعة تأتي الاستعمالات القرآنيّة الكريمة .

فالفعل اِسْكُنْ) المذكور في النّصّ الكريم فعل أمر ــ وقت نزول النّصّ الكريم ــ، وزمنه مستقبل خالص، مأخوذ من الماضي سكَنَ) الّذي هو من باب دخل ، و دخل) فعل لازم في الأصل، وقد يُسْتَعْمَلُ متعدّيا إذا دعت حاجة المعنى إلى ذلك .

والملحوظ أنّ أكثر الأفعال اللازمة ــ وبخاصّة تلك التي يُسْتَشْعَرُ فيها الدّلالة على الظّرفيّ ؛ زمنيّةً كانت، أم مكانيّة ــ إذا وقع بعدها لفظ دالّ على مكان محدود المساحة، أو على زمن محدود غير مطلق) فإنّها تغادر لزوميتها، وتُسْتَعْمَلُ استعمال الفعل المتعدّي على

سبيــــل التّوسعة في الكلام، والتّوسعة في الاستعمال، ويُقْصَدُ بالتّوسعة حذف حرف الجرّ الّذي يكون وسيط ؛ للوصول إلى المفعول ــ كما إنّ التّوسعة تعني بهذا الحذف خلق استعمالٍ ثانٍ للفعل، ولا يقتصر على استعمال واحد، فالاثنان توسعة، والواحد عدم توسعة ــ ، فقوّة الفعل اللازم في العمل تقف عند حدود الفاعل ؛ لأنّ تلك القوّة لا تستطيع الوصول إلى المفعول إلاّ بوساطة حرف الجرّ، على حين أنّ الفعل المتعدّي تمكّنه قوّته من الوصول إلى المفعول مباشرة، والقوّة هنا إنّما يُقْصَدُ بها قوّة المعنى وحاجته إلى ذلك العمل .

وبما أنّ التّوسعة يُقْصَدُ بها حذف حرف الجرّ ــ الّذي يكون واسطة للوصول إلى المفعول به الحقيقيّ إذا كان الفعل لازما، أو متضمّنا معنى الفرديّة ــ فإنّ النّصب حدث في الآية الكريمة لــ الجنّ) يكون من هذا الباب .

وإذا ما استُعْمِلَ هذا الفعل وأشباهه استعمال الفعل المتعدّي فلا بدّ من أن يتضمّن معنى فعلٍ متعدٍ ؛ إذ لا خلاف في أنّ الله جلّ وعزّ قد أخرج إبليس عند كفره، وأبعده عن الجنّة، وبعد إخراجه قال لآدم (عليه السلام) في قوله جلّ وعزّ : يَا آدَمُ اسْكُنْ) أي : " لازم الإقامة، واتّخذها مسكنا ــ وهو محلّ السكون ــ، وسكن إليه يسكن سكونا، والسّكن : النّار، والسّكن : كــلّ ما سكن إليه ... اسكن : تنبيه على الخروج ؛ لأنّ السّكنى لا تكون ملكًا، ولهذا قال بعض العارفين : السّكنى تكون إلى مدّة ثمّ تنقطع، فدخولهما في الجنّة كان دخول سكنى لا دخول إقامة "[1] .

والفعل اللازم الّذي يُسْتَشْعَرُ منه المكان يُسْتَعْمَلُ استعمال الفعل المتعدّي فينصب المفعول صراحة وعلانيّةً متى ما كان اللفظ الواقع عد ــ وهو العامل فيه ــ دالاًّ على مساحة محدودة معلومة الحدود والأبعاد ؛ ولأنّ الجنّة من عند الله جلّ وعزّ فهي معلومة المساحة والحدود عنده جلّ وعزّ لا عند غيره، فإنّ الفعل اسكن) استُعْمِلَ استعمال الفعل المتعدّي، وهو لازم الأصل، وأنّ الفعل اسكن) نصّ من حيث المعنى على أنّ آدم (عليه السلام) قد سكن الجنّة فعلا على الرّغم من أنّ هذا السّكن ليس بسكن إقامة .

وقد كان لــ سكن) استعمال متعدّد في القرآن الكريم، فقد استُعْمِلَ في غالب مجيئه لازما على الأصل في لسان العرب، فهو :

أوّلا : فعل لازم : لا يصل إلى مفعوله إلاّ بوساطة حرف الجرّ، وهو استعمال على أصله وقد وصل إلى مفعوله بــ :

ا : وساطة حرف الجرّ فِ ، نحو قوله جلّ وعز : وَسَكَنتُمْ فِي مَسَــاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ) [٢] فــ سكز) جاء فعلا ا زما على الأصل فيه، وقد وصل إلى مفعوله مساكز) بوساطة حرف الجرّ فِ) الّذي أفاد معنى الظّرفيّة المكانيّة، والتّقدير : سكنتم داخل مساكز .

ولعلّ سائلا يسأل : إذا كان مساكز) يدلّ على مكان فَلِمَ لم ينتصب على أنّه مفعول صريح

بلا حرف الجرّ فِ) ؟، والمسألة مختلفة عن النّصّ السّابق لهذا النّصّ، حيث إنّ مساكز) لم يُرَدْ بها المساحة المحدودة المعلومة، وإنّما أريد بها السّكن داخل هذه المساكن، فكان التّنصيص على السّكن داخل هذه المساكن لا على مساحة المساكن، والنّصّ الكريم صريح في هذا الشّأز .

ا : وساطة حرف الجرّ إلِ ، نحو قوله جلّ وعز : هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِيز) [٣] وجُعِلَ الفعل يسكز ــ وماضيه سكز) لازمًا ـ ، وقد وصل إلى مفعوله بوساطة حرف الجرّ إلِ ، و إلِ) هنا بمعنى في ، ويحتمل أن يكون بمعنى مِ ، ولكلٍّ معنًى .

ثاني : يُسْتَعْمَلُ استعمال الفعل المتعدّي كما مرّ، وكما في قوله جلّ وعز : ولَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيد) [٥] ومثله قوله جلّ وعز : وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً) [٦] ومثله قوله جلّ وعز : إن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُور) [٧] .

فالمفعولات في النّصوص الكريمة الضّمير ك ، و الأرض ، و الرّيِ ، ولو لوحظت المفعولات الثّلاثة لوُجِدَتْ أ ها دالّة على مساحة محدودة، مكّنتها من أن تكون مفعولات مباشر .

فالضّمير ك) ضمير خطاب لجماعة ذكور، وهذه الجماعة المخاطَبة سيكون لها إسكان في مساحة محدود . أمّا الأرض) فتدلّ على مساحة محدودة مخصَّصة لبني إسرائيل أما بشأن الرّيِ) فإنّ مستفهما قد يسأل كيف ا لرّيح أن تدلّ على مساحة محدودة ، فيُجَاْب : إنّ أسلوب الشّرط يتألّف من فعل الشّرط يش) وجواب الشّرط يسكز ، ففعل الشّرط يعبّر عن مشيئة الله جلّ وعزّ وقدرته على إسكان الرّيح متى أراد، فلا قدرة تدخل فيها مشيئة الله جلّ وعزّ وعدم

مشيئته، فإن اقتضت مشيئته سكان الرّيح فسيكون إسكانٌ لها، وهذا الإسكان سيكون في محلّ محدّد معلوم عنده جلّ وعزّ، وإن لم تقتض مشيئته ذلك الإسكان فلن تسكن .

ولأنّ (سكَن) من الأفعال الدّالّة على الظّرفيّة، ولأنّه من باب (دخَل) فإنّ الفعل الماضي (دخَل) كـ (سكَن) من حيث إنّه إن وقع بعده ما لا يدلّ على المساحة المحدودة فإنّه يتعدّى، نحو قوله جلّ وعز : ﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ / وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً / فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾[٨] ومثله قوله جلّ وعز : ﴿وَإِذَا جَآؤُوكُمْ قَالُوَاْ آمَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾[٩] ومثله قوله جلّ وعز : ﴿وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾[١٠].

فلأنّ ما بعد الفعل (دخل) لا يدلّ على مساحة محدودة معلومة، ولم يُرِدْ من النّصّ الدّلالة على المكان وصل الفعل بوساطة حرف الجرّ (في) في الآية الأولى، والـ (باء) في الثّانية، و (على) في الثّالث

فإن وقع بعد الفعل (دخل) لفظ دالّ على مساحة محدودة ــ وكان التّنصيص على المكان ــ انتصب ذلك اللفظ على المفعوليّة بلا وساطة، ويكون الفعل (دخَل) كـ (سكَن) لازمين في الأصل متعدّيين في الاستعمال، وهذا القول على قوله جلّ وعزّ : ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ إنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[١١] ومثله قوله جلّ وعز : ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ إِن تُرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً﴾[١٢] ومثله قوله جلّ وعز : ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾[١٣]، ومثله قوله جلّ وعز : ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّـنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[١٤].

الهوامش

(١) دراسات في اللغة والنّحو ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

(٢) دلائل الإعجاز ١٣٧.

(٣) الإمتاع والمؤانسة ١/ ١٢١.

(٤) الصّاحبي في فقه اللغة وسنن العربيّة ١٧٩ ـ ١٨٠.

٠٥) يُنظر : البلاغة والتّطبيق ١٥.

٠٦) شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك ١ / ٤١؛ ويُنظر : معاني النّحو ١ / ١٦.

٠٧) المرجع السّابق ١ / ١.

٠٨) شرح المفصّل ١ / ٨١؛ ويُنظر : اللغة العربيّة ــ قواعد ونصوص ــ ١٣.

٠٩) يُنظر : شرح المفصّل ١ / ٨١.

١٠) يُنظر : النّحو الوافي ١ / ٦، و: التّمهيد في النّحو والصّرف ٧.

١١) دلائل الإعجاز ١٢٢.

١٢) شذا العرف في فنّ الصّرف ٨؛ ويُنظر : شرح الكافية في النّحو ٤ / ١٤٧.

١٣) شذا العرف في فنّ الصّرف ٨.

١٤) يُنظر : أوضح المسالك إلى ألفيّة ابن مالك ٢ / ١٤.

١٥) يُنظر : شذا العرف في فنّ الصّرف ٥٠.

١٦) يُنظر : المرجع نفسه ٨.

١٧) من سورة النّساء ٤ / الآية ١٤٢.

١٨) من سورة طه ٢٠ / الآية ١٢٠.

١٩) من سورة البقرة ٢ / الآية ٤٥.

٢٠) يُنظر : مختار الصّحاح : مادّة : ق ب ض ، ومادّة : ب س ط .

٢١) الجامع لأحكام القرآن ٣ / ٤٣؛ ويُنظر : معاني القرآن للأخفش ١ ١٩٣

٢٢) من سورة البقرة ٢ / الآية ١٠١.

٢٣) من سورة البقرة ٢ / من الآية ١٠١.

٢٤) جعل : في أصل استعماله متعدٍ ، فإن كان بمعنى

أ / عرف) فيكون متعدّيا لواحد، نحو قوله جلّ وعز : وَالله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . من سورة النّحل ١٦ / من الآية ٨، لا تعلمون شيئا، أي : لا تعرفون شيئا .

ب / أو جعل) فيكون متعدّيا لاثنين، نحو قوله جلّ وعز : وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً / وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً / وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً . من سورة النّبأ ٧٨ / الآيات ٩ و ١٠ و ١، حيث إنّ كلاًّ من نوم) و الليل) و النّهار) يُعْرَب مفعولا أوّلا و سباتا) و لباسا ، و معاشا) مفعولا ثانيا .

١٥) الجامع لأحكام القرآن ٢ / ١ .

١٦) من سورة التوبة ٩ / الآية ٥ .

١٧) مختار الصحاح: مادة: س ل ح .

١٨) من سورة التوبة ٩ / من الآية ٥ .

١٩) يُنظر: معاني القرآن الفراء ١ / ٢١ .

٢٠) من سورة الأعراف ٧ / الآية ٢٤ .

٢١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٦٧ .

٢٢) من سورة البقرة ٢ / الآية ١٠١، يُنظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٣ .

٢٣) من سورة البقرة ٢ / من الآية ١٠١ .

٢٤) من سورة يوسف ١٢ / الآية ١٦ .

٢٥) مختار الصحاح: مادة: ج ي .

٢٦) من سورة النساء ٤ / الآية ٣ .

٢٧) من سورة النحل ١٦ / الآية ٩ .

٢٨) من سورة الإسراء ١٧ / الآية ١٠٤ .

٢٩) من سورة الأنعام ٦ / الآية ١٦٠؛ ويُنظر: من سورة النمل ٢٩ / الآية ٩، ومن سورة القصص ٢٨ / الآية ١٤ .

٣٠) من سورة الزخرف ٤٣ / الآية ٣ .

٣١) من سورة هود ١١ / الآية ٢ .

٣٢) من سورة عبس ٨٠ / الآيات ١ و ٢ و .

٣٣) من سورة ص ٣٨ / الآية .

٣٤) من سورة الأنعام ٦ / الآية ٤ .

٣٥) من سورة البقرة ٢ / الآية ٠٩ .

٣٦) من سورة يوسف ١٢ / الآية ١٦ .

٣٧) من سورة يوسف ١٢ / الآيتان ١٧ و ١٨ .

٨) من سورة البقر ٢ / الآي ٥ .

٩) مختار الصّحا : مادّ : س ك ز .

٠) من سورة البقر ٢ / من الآي ٥ .

١) الجامع لأحكام القرآ ٣٩ ؛ ويُظر : معاني القرآن الأخفش ١ ٥ .

٢) من سورة إبراهي ١٤ / الآي ٥ .

٣) من سورة الأعراف ٧ / الآي ٨٩ .

٤) من سورة الرّو ٣٠ / الآي ١ .

٥) من سورة إبراهي ١٤ / الآي ٤ .

٦) من سورة الإسرا ١٧ / الآي ٠٤ .

٧) من سورة الشّور ٤٢ / الآي ٣ .

٨) من سورة النّصر ١١٠ / الآ ت ١ و ٢ و .

٩) من سورة المائد ٥ / الآي ١ .

٠) من سورة يوسُف ١٢ / الآي ٨ .

١) من سورة آل عمرا ٣ / الآي ٧ .

٢) من سورة الكهف ١٨ / الآي ٩ .

٣) من سورة الفت ٤٨ / الآي ٧ .

٤) من سورة آل عمرا ٣ / الآي ٧ .

جريدة المصادر والمراجع

أو : الكتب المقدّس .

: القرآن الكري .

ثاني : الكتب المطبوع .

: الإمتاع والمؤانس : لأبي حيّان التّوحيديّ، صحّحه وضبطه وشرح غريبه / أحمد أمي ، وأحمد الزّين، منشورات المكتبة العصريّة، بيرو ـ صيد

ˇ : أوضح المسالك إلى ألفيّة ابن مالك : لابن هشام الأنصار يّ، ط ١، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت .

٤ : البلاغة والتّطبيق : ا . أحمد مطلوب، و ا . حسن البصير، ط ٢، وزارة التّعليم العالي والبحث العلميّ، العراق ــ بغداد ٩٩٩ ١ .

٥ : التّمهيد في النّحو والصّرف : ا . محمّد مصطفى رضوان، وآخران، مطبعة لجنــة لتّأليف والتّر مة والنّشر، القاهر .

١ : تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان : للشّيخ عبد الرّحمن بن ناصر السّعديّ ط ١، دار البيان الحديثة ٤٢٢ هـ ٢٠٠٢ ١ .

٧ : الجامع لأحكام القرآن : لأبي عبد الله محمّد بن أحمد الأنصــاريّ، القرطبيّ، ط ٢، دار الكتاب العربيّ، دار الثّ اف .

٨ : دراسات في اللغة والنّحو : الدّكتور عدنان محمّد سلمان، مطابع دار الحكمة للطّباعــة والنّشر ٩٩١ ١ .

١ : دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجانيّ، تصحيح وتعليق / محمود رشيد رضا، نشر مكتبة القاهرة ٣٨١ هـ ٩٦١ ١ .

١٠ : شذا العرف في فنّ الصّرف : أحمد الحملاويّ ١٢ ٩٠٧ ١ .

١١ : شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك : لبهاء الدّين عبد الله بن عقيل العقيليّ الهمدانيّ، المصريّ، مطبعة السّعادة ٣٨٢ هـــ ٩٦٢ ١ .

١٢ : شرح الكافية في النّحو : رضي الدّين الاستر باذيّ، ١ ، مطبعة عالم الكتب، القاهرة ، ٤٢١ هـ ٩٦٢ ١ .

١٣ شرح المفصّل : لابن يعيش النّحويّ، مكتبة المتنبّي، القاهر .

١٤ : الصّاحبي في فقه اللغة وسنن العربيّة : لابن فارس، تحقيق / مصطفى الشّويميّ، بيروت ٩٦٣ ١ .

١٥ : اللغة العربيّة ـ قواعد ونصوص ـ : ا . عماد حاتم، ˇ، الدّار لجماهيرية للطّباعة والنّشر والتّوزيع، طرابلس ــ ليبيا ١٣٩١ و . ر ٩٨٢ ١ .

١٦ : مختار الصّحاح محمّد بن أبي بكر بن عبد القادر الرّازيّ، مطبعة بابل، بغداد ٩٨٣ ١ .

١٧ : معاني القرآن : للأخفش ؛ أبي الحسن سعيد بن مسعدة البلخيّ المجاشعيّ، دراسة وتحقيق / ا. عبد الأمير الورد، ا ، عالم الكتب، بيروت ٤٠٥ هـ ٩٨٥ ا ا.

١٨ : معاني القرآن : للفرّا ؛ أبي زكريّا يحيى بن زياد، بتحقيق / أحمد يوسُف نجاتي، وآخرَين، مطبعة دار الكتب الد صريّة، القاهرة ٣٧٤ هـ ٩٥٥ ا.

١٩ : معاني النّحو : ا. فاضل صالح السّامرّائيّ، مطبعة جامعة الموصل، ساعدت جامعة بغداد على نشره ١٩٨٦ م ٩٨٧ ا ا.

٢٠ : النّحو الوافِي : عبّاس حسن، دار المعارف بمصر .